قضايا أدب الهامش السياسة

4.0

د.غزلان هاشمي

24/03/2024

قائمة المحتويات

وحدة 5

مقدمة 7

I-ملامح الهامش السياسي 9

II-مابعد الكولونيالية وقضايا الهامش 11

III-رواية صديقتي اليهودية لصبحي فحماوي (فلسطيني) و تعرية الاستعمار : 13

خاتمة 15

قائمة المراجع 17

مراجع الأنترنيت 19

وحدة

ـ نحاول هنا أن نتعرف على أهم القضايا التي انشغل بها أدب الهامش ألا وهي السياسة
ـ كما نحاول ضبط تمظهراته من خلال إحدى التيارات الفكرية مابعد الحداثية وتقديم مثال تطبيقي لفهمه هذه التمظهرات.

مقدمة

خاض الأدب الهامشي في المسكوت عنه أو فيما حاول الأدب الرسمي طمسه وتغييبه ،لذلك عالج قضايا السياسة من وجهة نظر المهمشين ،فالقارئ يجد نقدا للسلطة السياسية في نصوصه المختلفة الشعرية منها والروائية ،وحتى أنماط التعبير المختلفة التي لم تعتد بها المؤسسة الأدبية ،فانطلاقا من الشعر الذي حاول الخروج عن تقاليد القبيلة وأعلن أصحابه تمردا واضحا على سلطتها من خلال السخرية من زعمائها وسياساتهم الإقصائية ،وجد هذا الخوض في موضوعات السياسة من وجهة نظر المهمشين.

I ملامح الهامش السياسي

يصور أدب الهامش قضايا المسحوقين الذين تحاول المؤسسة الأدبية تغييبهم وطمس اهتماماتهم ،ويظهر الصراع جليا بين السلطة السياسية وهؤلاء ،لذلك يمكن أن نلمح ملمحين في كتاباتهم:

1.تثوير الكتابة : حيث يتم التمرد على تقاليد الكتابة الأدبية تعبيرا عن رفض معايير المؤسسة الأدبية التي تعد حسب رأيهم خادمة للسلطة السياسية المركزية ،والتثوير يتم على المستوى الأجناسي وعلى المستوى اللغوي أيضا :

أ ـ على المستوى الأجناسي:حسب رأي المهمشين فالأجناس الأدبية جزء من منظومة التسلط والاستبداد ،فهي تفرض قوانين ومعايير محددة على المبدع ،في حين أن الإبداع سيرورة تحقق على المستوى الزمني الآني والمستقبلي خاضع للحركية والتجدد ،لذلك حاول هؤلاء خرق الأجناس التقليدية والمتوارثة وخلق أجناس أدبية جديدة قد تعتمد الهجنة ،وهذا الاختلال تعبير عن رفض أي سلطة معيارية ثابتة تحاول خنق الذات وتوجيه مدركها نحو وعي ثابت ،إذ المأزق يتعمق حينما يدرك هؤلاء أن الامتثال لهذه المعايير هو امتثال مقنع لسلطة سياسية تحاول أن تروج لأدب يخدم مصالحها الشخصية ويضمن استمرارها ويبشر برؤيتها.

ب ـ على المستوى اللغوي: يستخدم المهمشون لغة بعيدة عن لغة النخبة ،كتعبير عن رفضهم وعن تمايزهم ،ويظهر الانتهاك واضحا حينما يستعان باللهجات العامية أو بتشكيلات لغوية مبسطة خليط بين العامي والفصحى ،وقد يظهر التلاعب والانتهاك من خلال السخرية من أنظمة الكلام النحوية والأسلوبية وحتى التعبيرية في محاولة جريئة للثورة على النسق اللغوي ومن ثمة معارضة السلطة الأدبية ومعها السياسية ،بل وقد تستخدم المواربات والتلميحات الساخرة من أجل التحرر من الرقابة المعيارية الحادة.

2.التثوير على المستوى الموضوعاتي:

حاولت النصوص الهامشية أن تقوض الرؤية المركزية على المستوى الموضوعاتي ،لذلك اهتمت بمواضيع جانبية بل وعبرت عن علاقات سياسية منطقها الرفض المتبادل ،فعلى مستوى الدولة الواحدة تحدثت عن العلاقة المتوترة بين السلطة السياسية والمقموعين ،وعن همومهم وانشغالاتهم التي حاول الخطاب الرسمي تجاهلها وتغييبها ،بل والأكثر من ذلك اهتمت بالعلاقة الجدلية بين المثقف الثوري والسلطة السياسية وهي علاقة يحكمها منطق الطمس والمغايرة إلى درجة التضاد والتوتر الدائم .

لذلك يتحرر أدب الهامش من الشخوص المركزية التي لعبت دور البطولة في الأدب المركزي ،فشخوصه من العامة أو من القاع كما يسمونه ،وهذه الشخوص تتحدى السلطة السياسية في محاولة لرد الاعتبار وتقويض مركزيتها وطلبا لعالم يسود فيه العدل والحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان.

ظهر إذن النص المقاوم للمركزية حيث حاول تقويض رؤيتها وتفكيك خطاباتها و ادعاءاتها والقضاء على نرجسيتها ،والتعبير عن المآسي التي يقبع فيها الهامشيون.(1)

II مابعد الكولونيالية وقضايا الهامش

مصطلح ما بعد الكولونيالية يشير إلى حقل من الدراسات الثقافية التي أنتجت في زمن ما بعد الحداثة ، فقد حاولت دراسة أدب الحداثة ليس كما هو متوقع دراسة جمالية و إنما بالكشف عن مضمونها الثقافي و فضح تجليات الإمبريالية فيه ، و ذلك من أجل زحزحة المركز و إعادة الاعتبار إلى الهامش.

إن هذه النظرية ترفض الصياغة الغربية للأدب ، و تسعى إلى الاختلاف و إلى الاحتفاء بهوية إنسانية واسعة تتلاقى فيها جميع الثقافات ، أو ما أصطلح عليه إدوارد سعيد في الاستشراق بـ " الهجنة " ، التي تعني رفض الهوية النقية التي ادعاها الغرب و التي اصطنعها من أجل جعل باقي الثقافات تسعى لتبنيها.

يعتبر إدوارد سعيد و غاياتري سبيفاك و هومي.ك.بابا الثالوث المقدس لهذه النظرية ، بحكم أنهم هاجروا من بلاد الهامش إلى بلاد المركز ، حيث قاموا في هذه البلاد الجديدة الغربية بالاحتفاء بالهجنة في عالم جديد أرادوا فيه البحث عن صورتهم بدلا عن ثقافاتهم الوطنية.

ما بعد الكولونيالية سعت إلى نقد الفرضيات التي قامت عليها رؤى المركزية الأوروبية ، فكل ثقافة تأثرت بالوجود الإمبريالي الغربي المتعالي و الذي ينكر وجود الهامش ، فمثلا اللغة اعتبرت أداة للسلطة نظرا لتمسك الذات بلغة المركز أو لغة الدول المستعمرة لذلك و كرد فعل تنتج كتابة تتحقق بالنظر إلى عمليتين أساسيتين تتمثلان في :

أ- الإقصاء : أي إنكار تميز اللغة الاستعمارية و محاولة التمرد على المعايير التي تحدد ما هو صحيح في هذه اللغة و رفض سلطتها.

ب- الاستيعاب : أي محاولة فهم لغة المركز ثم إعادة بنائها و تشكيلها من خلال توسيع نطاق استخداماتها ، حتى تتمكن من استقبال استخدامات لغوية جديدة تكون رمزا للانفصال عن لغة المستعمر.

إن مهمة تفكيك الخطابات الاستعمارية تهدف للقضاء على الاختلاف و التمايزات التي ساقتها الممارسات الخطابية الغربية التي أنتجت في جو من القوة و السلطة و السيطرة.

حاول إدوارد سعيد البحث في الخطاب الغربي الاستشراقي ، و الذي حاول تشويه صورة الآخر لا تقديم المعرفة الموضوعية و الهدف من ذلك هو انتقاص الشرق و تهميشه ، فالغربي أو المستشرق ليس هدفه الكشف عن العوالم المغيبة بطريقة علمية بل هدفه إعادة تشكيله في المتخيل الغربي و طمس حقيقته ، ليصبح الشرق على إثرها ليس كما نعيش فيه و إنما صنعا غربيا ، فهو عالم عجائبي.

في كتابه " الاستشراق " بين إدوارد سعيد أن الغرب ينتج صورا عن الشرق تمثل أساطيرا تتحدث عن كسل الشرقيين و خداعهم و نزعتهم اللاعقلية ، لذلك يعد الاستشراق أسلوبا غربيا من أساليب السيطرة على الشرق لأنه يشوه صورتهم و يبرر استعمارهم في مقابل تأكيده على تفوق العرق الأوروبي ، إذن حسب رأيه هدف الاستشراق تركز في خلق التخاذل الروحي و إيجاد الشعور بالنقص في نفوس المسلمين و الشرقيين عامة ، و حملهم من هذا الطريق على الرضا و الخضوع للتوجيهات الغربية ، فالشرقي سيصبح ذلك اللاعقلاني و الفاسق و الطفولي و المختلف في مقابل الأوروبي العقلاني الفاضل الناضج و السوي ، و هذا ما سيبرر السيطرة على الشرقي بدوافع مقنعة و هذا ما يعطي شرعية لاستعماره و التحكم فيه بدافع تخليصه من بربريته و جهله ، و هذا حسب إدوارد سعيد تجلى في حملة نابليون على مصر.

إذن كانت كتابات إدوارد سعيد تمثل صراع المركز و الهامش أي صراع الخطابات.

و أما فرانز فانون (الأسود) فيعد أحد رواد ما بعد الكولونيالية ،و قد نشر كتابا بعنوان " المعذبون في الأرض " عام 1961 ، تضمن مقالا تحت مسمى " حول الثقافة الوطنية " حاول من خلالها إرساء دعائم النظرية النقدية المتجهة إلى الاستعمار بالنقد و المساءلة ، في تعاطف شديد مع الدول المستعمرة التي لم يكتف الأوروربيون كما يقول فانون بتخريب حاضرها و إنما اتجهوا إلى ماضيها أيضا ، و سعوا إلى هدمه أو تشويهه بالقدر نفسه من الشراسة ، من أجل ذلك سعى مثقفو هذه البلدان المستعمرة للعودة إلى ثقافتهم الوطنية من أجل استعادتها.

و أما المفكر الفرنسي روجيه غارودي و الذي كان أحد قياديي الحزب الشيوعي الفرنسي في سبعينيات

القرن العشرين ، و رأى أن مهمة المفكر هي تحطيم الأساطير التي تحكم العالم خاصة الخرافات اليهودية ، و صدرت له العديد من المؤلفات في هذا الموضوع منها " الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل " ، و الذي كان سببا في تقديمه إلى المحاكمة و السجن مع إيقاف التنفيذ ، و كذا كتاب " أمريكا طليقة الانحطاط ".

و من أجل خلق علاقات حوارية دعا غارودي إلى احترام الآخر و حضارته بعيدا عن أي فكرة تبيت السيطرة ، يقول : " و من الواجب أن نتعلم من الحضارات الأخرى ، بصورة أساسية ، المعنى الحقيقي لعلاقة المشاركة الإنسانية التي تجد كل فاعلية ذاتها و هي تنهض بعبء من أعباء المجتمع المسؤول ".(2)

III رواية صديقتي اليهودية لصبحي فحماوي (فلسطيني) و تعرية الاستعمار :

عام 2015 صدرت هذه الرواية عن المؤسسة العربية للدراسات و النشر في بيروت ، تتكون من 237 صفحة ، تنقسم إلى سبعة عشر عنوانا ، لكن العنوان ليس عبارة عن جملة أو كلمة أو رقم كما باقي الروايات ، إنما عبارة عن تاريخ بدأ بـ (1993/06/01) و انتهى بـ (1993/06/29)

يسرد بطل الرواية جمال قاسم بعض تفاصيل حياته ، فهو أردني الجنسية ، عربي الهوية ، مختص بعالم الحدائق ، أحيانا يسافر ليزور بعض المعارض ، في إحدى المرات يلتحق برحلة سياحية تطوف به في بلاد أوروبا من شمالها إلى جنوبها ، و هناك يتعرف صدفة على جارته في المقعد يائيل آدم مكسيكية الجنسية ، يهودية الديانة ، إسرائيلية التوجه ، تدور بينهما خلال الرحلة العديد من الحوارات و النقاشات و تبادل الآراء و الأفكار.

من العنوان تظهر اشكالية رفض المحتل من خلال لفظة يهودي ، و التي تستحضر معها كل صور العنصرية و القتل و الدماء و التشريد التي يعاني منها الفلسطيني و العربي جراء الاحتلال الصهيوني.

يستخدم الكاتب تقنية الحكاية داخل الحكاية كما في ألف ليلة و ليلة ، هدف من خلالها لتحقيق وظيفة التسلية (الحديث مع يائيل) و كذا وظيفة الاعتراض (حينما يدافع جمال قاسم عن العرب و ينفي عنهم صفة الإرهاب و التطرف و التخلف و التراجع الفكري) ، و هذه التقنية عكست بعض مظاهر ما بعد الاستعمار منها : الإمبريالية الجديدة

يقول الراوي : « اكتشفوا أن حياتهم في الصحاري العربية هي مجرد عطش ، و تعب ، و قتال ، و اقتتال ، و انقتال... أما الآن ، فإن رأس المال الفردي ، أصبح يمد أذرعه بسهولة و يسر ، و بطريقة قانونية ، فيقوم بالاستخراب ، أقصد بالاستثمار أو بالاستعمار...» (ص 150)

صراع الهامش و المركز في الرواية :

في مواضع مختلفة يقدم الراوي مشاهد دارت بين جمال قاسم و يائيل آدم ، حول أحقية من في امتلاك الأرض الفلسطينية ، يقول : « تشمئز يائيل من هذا التشبيه ، فتقول : لا تقل تدميرا نحن اليهود نريد أن نجد مكانا لنا تحت الشمس ، نريد أن تكون لبني إسرائيل دولة نسميها إسرائيل ، لا تقولي إسرائيل قولي فلسطين ، لا تقل فلسطين قل إسرائيل » (ص 63)

إن حالة الصراع تمثل إيديولوجيا منقسمة لفئتين ترى كل منهما نفسها على حق.

يمتد هذا الصراع داخل فضاء الرواية ليشمل الصراع العربي (الشرق) مع نظيره (الغرب) ، فنجد العرقيين الغربيين يقولون : « نحن الذين حفرنا آبار النفط في صحاري العرب ، فهي لنا ، و لو لم نحفرها لبقت في آبارها ، و لم يفرح بها العرب ، و لذلك فهي آبارنا ، و نفط العرب يجب أن يكون لنا » (ص 52) ، ليظهر بعد ذلك التواطؤ البريطاني على الحق الفلسطيني من خلال الحوار الذي دار بين جمال و العجوز الإنجليزية " روز " :

« فقلت لها : كيف تهدي بريطانيا ما لا تملك ، لمن لا يستحق

فقالت العجوز : لقد حزن زوجي على ذلك التسليم ، كان يود أن يبقى الإنجليز هم الذين يتمتعون باستعمار فلسطين الدافئة الخضراء الجميلة ...» (ص 56)

و يقدم بطل الرواية جمال صور الآثار ، الدمار و الخراب التي خلفتها التجربة الأوروبية الغربية في الدول المحتلة فيقول

« كانت الدول المعتدية تقوم بالاستيلاء الذي يسمونه زورا الاستعمار بينما هو الاستخراب » (ص 150) ،

فالراوي هنا قام بتعرية مصطلح استعمار الذي زرعه المحتل لتغطية حقيقته و أهدافه.

1. فضح هشاشة المجتمع الغربي :

2. وردت بعض القصص في الرواية تشير إلى هشاشة المجتمعات الغربية و مدى انحطاطها و تفككها ، و كأن ما ورد فيها من نقد يشبه لما دعى إليه علي حرب أو حسن حنفي في كتابه الاستغراب من نقد للآخر و لثقافته كرد فعل على ما تروجه الخطابات الاستشراقية ، مثال ذلك القصة التي رواها الرجل العجوز لجمال عن جارته التي قال عنها « تزوجت من رجل مرموق ، يعمل مدير فرع بنك مشهور ، أسكنها في فلة جميلة ، طلبت المرأة الفاسقة من زوجها أن تتسلى و تنشغل بتأجير غرفة للغرباء في بيتها الجميل ، و بعد ستة أشهر من هواية التأجير هذه ، هجرته و هربت مع أحد النزلاء ، الذي يبدو أنها قد انسجمت معه في أشياء كثيرة » (ص 59-60) ، هذا و ورد في الرواية حديث عن الشذوذ الجنسي ، و زواج المثليين و عدم مساعدة المحتاج و القنوات الإباحية ، و الحرية المفرطة داخل المجتمعات الغربية.

3. نقد الذات :

صحيح أن الرواية عدت نوعا من المقاومة الأدبية و الثقافية ، حيث عرت الواقع و دافعت عن الحق الفلسطيني في الأرض ، إلا أن ذلك لم يمنع الراوي من محاورة ثقافته و مجتمعه ، و انتقاد بعض الأمور فيها ، مع افتخاره بأمور أخرى ، إذ لحظة المفارقة بين العرب و الغرب في كثير من الأمور التي صورها مثل : استثمار كل واحد منهما للوقت ، و المفارقة بين عمال العرب و الغرب ، و كيفية قيام عامل أوروبي واحد بمجهود فريق عربي كامل دون عناء أو تذمر ، بالإضافة إلى الفرق الشاسع بين الاقتصاد العربي و الغربي خصوصا الإنجليزي ، و الفرق بين ملك أوروبي و أصغر مسؤول عربي في التعامل مع الرعية و تواضعه.

و تهدف هذه المفارقات للتنبيه و التوجيه ، و تصحيح العديد من المظاهر السلبية في المجتمع العربي ، و تعكس صورة غير حضارية تتنافى و قيم ديننا.

4. استخدام أسلوب الرحلة :

الروائي استخدم أسلوب الرحلة ليروي و يعري حقيقة المجتمعات الغربية أو آثار الاستعمار السلبية حتى يومنا هذا و أن معظم اليهود من أصل جماعات الفايكينج الذين نزلوا من شمال أوروبا إلى بحر الخزر و أسسوا مملكة الخزر (بحر قزوين) ثم اعتنقوا الدين اليهودي .(3)

خاتمة

ظهر إذن النص المقاوم للمركزية حيث حاول تقويض رؤيتها وتفكيك خطاباتها و ادعاءاتها والقضاء على نرجسيتها ،والتعبير عن المآسي التي يقبع فيها الهامشيون.

وأما على المستوى الدولي عامة فمنطق الأحادية والانغلاق الإيديولوجي رفضته دول الأطراف لذلك حاولت نصوص مبدعيها تقويض الرؤية المركزية وإعادة الاعتبار للمسحوقين في العالم وللمستعمرين ،ولربما يعد تيار مابعد الكولونيالية أكثر تجليا لهذه المحاولة.

قائمة المراجع

[1] غزلان هاشمي:تعارضات المركز والهامش في الفكر المعاصر،دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع،العراق،ط1 ،2014.

[2] غزلان هاشمي:تعارضات المركز والهامش في الفكر المعاصر،دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع،العراق،ط1 ،2014.

مراجع الأنترنيت

[3] الطابع الما بعد استعماري في رواية "صديقتي اليهودية" https://m.sa24.co/article/866987